النداءات الإيمانية في سورة الأنفال

دراسة موضوعية

د. بهاء الدين مرتضى حسن أحمد الشروني

مقدمة: الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وبعد فإن كتاب المولى تبارك وتعالى منهج حياة لكل الناس وقد اشتمل هذا الكتاب العزيز على نداءات عدة ينادى فيها الله عز وجل فيها أصنافاً من الناس وهذا البحث يتعرض لبعض هذه النداءات وهى التى تختص بالمؤمنين والتى جاءت فى سورة الأنفال وبلغت هذه الندآآت ست نداءات نادى الله عز وجل فيها المؤمنين بلفظ الإيمان وذلك ليشعرهم أنهم يختلفون عن غيرهم من الناس، وجاء النداء الأول ليأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومعلوم أن قيام أمر الدين أنما هوعلى طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليها يترتب دخول الجنة وبعدمها يكون دخول النار نعوذ بالله، ثم جاء النداء الثانى آمراً بالإستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والإستجابة تأتى بعد الطاعة فحينما يطيع المؤمن تراه يستجيب للأوامر والنواهى بلا ملل ولا كلل وإنما بنفس راضية، ثم جاء النداء الثالث بالنهى عن خيانة الله ورسوله وتعريف المؤمنين أن خيانة الله ورسوله تتمثل فى ارتكاب المحذورات وعدم امتثال المأمورات، ثم النداء الرابع وهويأمر بالتقوى ولعله غنى عن الذكر أن التقوى هى ملاك الأمر كله وأن من ثمراتها التفريق بين الحق والباطل، ثم النداء الخامس وهوينهى عن التولى يوم الزحف وهوكبيرة من الكبائر توجب سخط الله وسخط رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم خاتم النداءات وهو يأمر بالثبات عند قتال الأعداء مع الإستعانة بذكر الله كثيراً فهوالذى بيده الأمر من قبل ومن بعد وهكذا ينبغى أن يكون حال المؤمن.

المبحث الأول

الأمر بطاعة الله ورسوله وتعريف الإيمان والنداء

تعريف النداء: النداء هورفع الصوت بماله معنى والعربي يقول لصاحبه ناد معي ليكون ذلك أندى لصوتنا أي أبعد له[١] وقد يضم مثل الدُعاءُ والرُغاءُ. وناداهُ مُناداةً ونِداءً، أي صاح به وتَنادَوْا، أي نادى بعضُهم بعضاً[٢].

تعريف الإيمان: أ- الإيمان فى اللغة: في التنزيل العزيز ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [٣] أَي بمُصدِّقٍ والإيمانُ التصديقُ والإيمانُ مصدر آمَنَ يُؤْمِنُ إيماناً فهومُؤْمِنٌ واتَّفق أَهلُ العلم من اللُّغَويّين وغيرهم أَن الإيمانَ معناه التصديق [٤]. ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية [٥] أمرا زائدا حيث يقول: (فَكَانَ تَفْسِيرُهُ بِلَفْظِ الْإِقْرَارِ أَقْرَبَ مِنْ تَفْسِيرِهِ بِلَفْظِ التَّصْدِيقِ مَعَ أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا [٦].

---

(١) معجم الفروق اللغوية لابي هلال العسكري ج١- ص ٥٣٤ – تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي – ط: الاولى- ١٤١٢

(٢) أنظر الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري ج٢- ص ٢٠١- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين – بيروت- ط: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م ولسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور ج١٥- ص ٥١٥ – دار صادر – بيروت .

(٣) سورة يوسف: ١٧

(٤) لسان العرب لابن منظور ج١٣- ص ٢١

(٥) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الشيخ الإمام العلامة الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع شيخ الإسلام علم الزهاد نادرة العصر تقى الدين أبوالعباس أحد الأعلام ولد سنة ٦٦١هـ كان من بحور العلم ومن الأذكياءالمعدودين أُمتحن وأُوذي مرات مات سنة ٧٢٨هـ. أنظر طبقات الحفاظ للسيوطى ص ٥٢٠-٥٢١ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٣هـ.

(٦) أنظر مجموع الفتاوى لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ج٧- ص ٢٩١ تحقيق: أنور الباز – عامر الجزار-: دار الوفاءط: الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .

ب- الإيمان إصطلاحا: هوتصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان والإيمان [١]. ويستعمل تارة اسما للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ (٢) ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرا بالله وبنبوته. قيل: وعلى هذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [٣] وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾[٤]

ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح: إيمان. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ ﴾ [٥] أي: صلاتكم [٦].

أهمية الإيمان بالله:

الإيمان بالله سبحانه وتعالى له أهمية بالغة في حياة المسلم؛ لأن سعادته في الدارين مبنية على قوة إيمانه بربه عز وجل وقربه منه، فمن أطاع الله تعالى في ما أمره، وآمن به إيماناً صادقاً، واجتنب ما نهي عنه، وقال: سمعنا وأطعنا، آمنا وصدقنا؛ فقد فاز فوزاً عظيماً.

---

(١) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي- المكتب الإسلامي - بيروت- ط الرابعة، ١٣٩١.

(٢) سورة المائدة: ٦٩

(٣) سورة يوسف: ١٠٦

(٤) سورة الحديد: ١٩

(٥) سورة البقرة: ١٤٣

(٦) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ج١- ص ٤٩- دار القلم . دمشق.

كما أن نجاة العبد من عذاب الله، ومن شديد عقابه تكون بالإيمان الصحيح الذي علمنا إياه رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] والإيمان بالغيب هوأساس التسليم التام لله تعالى في أمره ونهيه، وعندما يثبت هذا الإيمان في قلب المؤمن؛ لا تجده يعترض على أي شيء من الشرع المنزل، ولا يصد عنه؛ بل هوفي غاية الانقياد، وتمام الانشراح لشرع الله تعالى.والإيمان الصحيح الصادق الراسخ؛ هوالمحرك الذي يقرب من الله تعالى، ويجلب ولايته، ويتحصن به المؤمن من كيد أعدائه من شياطين الإنس والجن، ومن معتقداتهم الفاسدة وأفعالهم القبيحة، وأسس هذا الإيمان هي: العلم الصحيح المستقى من الوحيين الشريفين، والإيمان بالغيب، والكفر بالطاغوت، والقيام بمقتضى التكليف الشرعي، والإخلاص لله تعالى في العبادة، والصدق في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبهذه الأسس تترسخ شجرة الإيمان في القلب المؤمن؛ ثم يجد حلاوته ولذته، قال الله تبارك وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فجذور شجرة الإيمان هي أركانها الستة، وساقها الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفروعها الأعمال الصالحة من أعمال القلوب والجوارح، وثمرتها اليانعة هي الأمن والاطمئنان والحياة الطيبة، وسعادة الدنيا والآخرة، وولاية الله تعالى. ولقد كانت الأمة على هذا الإيمان الصحيح والعقيدة الحقة

(١) أنظر الإيمان حقيقته، نواقضه، خوارمه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عبد الحميد الأثرى ج١– ص ٢

التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا وبلغها لصحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين فكانوا أكمل الناس إيماناً، ويقيناً، وفهماً، وتبليغاً لهذه العقيدة [١].

المطلب الثانى: الأمر بطاعة الله ورسوله

النداء الأول فى سورة الأنفال هوالأمر بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [٢] وهذا النداء من الأهمية بمكان يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله (أطيعوا الله ورسوله) فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ ولا تدبروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفين أمره ونهيه ﴿ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ أمرَه إياكم ونهيه، وأنتم به مؤمنون[٣].﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ لا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا ﴾ بآذاننا ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بأذانهم بمنزلة من لم يسمعها.

(١) أنظر الإيمان حقيقته، نواقضه، خوارمه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عبد الحميد الأثرى ج١- ص ٣

(٢) سورة الأنفال: ٢٣

(٣) تفسير جامع البيان عن تأويل آى القرآن لمحمد بن يزيد بن جرير الطبرى ج١٣- ص ٤٥٧ – دار الفكر – بيروت – ط ١ – ١٤٠٥هـ تحقيق د. مصطفى مسلم محمد.

ونفى عنهم السّماع لانتفاء ثمرته إذ ثمرة سماع الوحي تصديقه والإيمان به والمعنى أنكم تصدّقون بالقرآن والنبوة فإذا صدر منكم تولٍّ عن الطاعة كان تصديقكم كلا تصديق فأشبه سماعكم سماع من لا يصدق(١).

ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لوفرض أن لهم فهما فقال: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ ﴾ أي: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم، لأنه يعلم أنه ﴿ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ ﴾ أي: أفهمهم ﴿ لَتَوَلَّواْ ﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ عنه(٢).قال ابن جريج ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ ﴾ لقالوا: ﴿ ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ ﴾ (٣) ولقالوا ﴿ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا ﴾ (٤) ولوجاءهم بقرآن غيره ﴿ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ قال ابن زيد: لوأسمعهم بعد أن يعلم أن لا خير فيهم، ما انتفعوا بذلك، ولتولوا وهم معرضون (٥) .

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ﴾ (٦) الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكُصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه،

(١) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ج٦– ص ٥٥ – تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض – دار الكتب العلمية – لبنان– بيروت – ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ج٤– ص ٣٤ – دار الفكر – بيروت – ط١ – ١٤٠١هـ – تحقيق أحمد يوسف الدقاق.

(٣) سورة يونس: ١٥

(٤) سورة الأعراف: ٢٠٣

(٥) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٢

(٦) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٣٣

فيستعملوا بهما أبدانهم[١]. عن مجاهد: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ قال: الذين لا يتّبعون الحق. وقال ابن زيد وليس بالأصم في الدنيا ولا بالأبكم، ولكن صمّ القلوب وبُكمها وعُميها! وقرأ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [٢]. قال ابن عباس[٣]: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ نفرٌ من بني عبد الدار، لا يتبعون الحق [٤] وإلى هذا مال الطبرى[٥] وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قال ابن كثير [٦] : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح. ويرى الباحث أن الآية تتناول المشركين والمنافقين لأن كلاً منهما تقع عليه صفة السماع غير المجدى والذى لا ينفع صاحبه لعمى قلبه واستحكام هواه وغلق عقله، وهكذا كل من اتصف بصفتهم ونحا نحوهم.

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٥٩

(٢) سورة الحج: ٤٦

(٣) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبوالعباس الهاشمي البحر الإمام حبر الأمة وفقيه العصر وإمام التفسير ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم قال أبوبكرة قدم علينا ابن عباس البصرة وما فى العرب مثله جسماً وعلماً وثياباً وجمالاً وكمالاً.ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وتوفى عام ٦٨هـ. أنظر التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى ج٥/ ص٣ – دار الفكر – تحقيق السيد هاشم الندوى وسير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد عثمان الذهبى ج٣/ ص٣٣١–٣٥٩ – تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٣هـ – ط ٩.

(٤) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٠

(٥) المرجع السابق ج١٣– ص ٤٦١

(٦) إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي البصري الإمام المحدث الحافظ ذوالفضائل عماد الدين ولد سنة ٧٠٠هـ ولازم المزي وبرع له التفسير الذي لم يؤلف على نمطه مثله والتاريخ قال ابن حجر كان كثير الإستحضار وسارت تصانيفه في البلاد في حياته وانتفع بها الناس بعد وفاته. أنظر طبقات الحفاظ للسيوطى ص٥٣٤– دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ١٤٠٣هـ.

فهؤلاء شر البرية، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله عز وجل فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (٢).

وهذا دليل على أن اللّه تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يزكولديه ولا يثمر عنده وله الحمد تعالى والحكمة في هذا (٣).

قال الطبرى: فتأويل الآية إذًا: ولوعلم الله في هؤلاء القائلين خيرًا، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَره، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حججه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون. ولوأفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا، لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعبره وحججه، معاندون للحق بعد العلم به(٤).

فدلت الآية على أن قول المؤمن: سمعت وأطعت، لا فائدة فيه ما لم يظهر أثر ذلك عليه بامتثال فعله، فإذا قصر في الأوامر فلم يأتها، واعتمد النواهي فاقتحمها فأي سمع عنده وأي طاعة ! وإنما يكون حينئذ بمنزلة المنافق الذي يظهر الإيمان، ويسر الكفر، وذلك هوالمراد بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ "(٥).

"(٥).

---

(١) سورة البقرة: ١٧١

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩

(٣) تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ج١– ص ٣١٨ – تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.

(٤) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٢

(٥) تفسير الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى ج٧ – ص٣٨٨ – دار الشعب القاهرة – ط٢ – ١٣٧٢هـ – تحقيق أحمد عبد العليم البردونى.

المبحث الثانى

الإستجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم

جاء هذا النداء فى المرتبة الثانية من حيث الترتيب وله متعلق بالنداء الأول فالإستجابة هى الطاعة قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

قال البخاري: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ ﴾ أجيبوا، ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ لما يصلحكم.

وقد اختلف أهل التفسير فى قوله:(إذا دعاكم لما يحييكم). فقال بعضهم: معناه استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم للإيمان[١]عن السدي [٢]: قال: أمّا ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾" فهوالإسلام، أحياهم بعد موتهم، بعد كفرهم[٣]وقال مجاهد ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾الحق[٤].

قال الطبرى[٥]: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معناه استجيبوا لله وللرسول بالطاعة، إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق. وذلك أن ذلك إذا كان

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٣

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن السدى مولى زينب بنت قيس أصله حجازى يعد فى الكوفيين عالم بالتفسير راويةً له قال سعيد القطان لابأس به ما سمعت أحداً يذكر السدى إلا بخير وما تركه أحد قال الإمام أحمد ثقة مات سنة١٢٧هـ.

أنظر الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي ج٢/ ص ١٨٤– دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الأولى، ١٢٧١ – ١٩٥٢م ومعرفة الثقات للعجلى ج١/ ص٢٢٧ – مكتبة الدار – المدينة المنورة – ط ١ – ١٤٠٥ هـ تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي.

(٣) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٤

(٤) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٣٤

(٥) محمد بن جرير بن يزيد أبوجعفر الطبرى الإمام العالم الحافظ أحد الأعلام وصاحب التصانيف الباهرة الباهرة ثقة صادق،قال الخطيب كان أحد الأئمة يحكم بقوله ويرجع إلي رأيه لمعرفته وفضله، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل زمانه له تاريخ الإسلام والتفسير الذى لم يصنف مثله ولد سنة ٢٢٤هـ وتوفى سنة ٣١٠هـ.

معناه، كان داخلا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدووالجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب. أما في الدنيا، فبقاء الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة، فحياة الأبد في الجنان والخلود فيها [١].

ويرى الباحث أن الراجح أن الآية عامة فيدخل فى ﴿لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾كل ما يتم به حياة المؤمن واستقامته فيدخل فيها الطاعة والحق والصلاح وكل ما من شأنه أن يجعل المسلم على استقامة. ويستدلّ بهذا الأمر بالاستجابة على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أوقول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائناً ما كان، ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال، وفي هذه الآية الشريفة أعظم باعث على العمل بنصوص الأدلة، وترك التقيد بالمذاهب، وعدم الاعتداد بما يخالف ما في الكتاب والسنة كائناً ما كان [٢]. والإستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم حتى داخل الصلاة لما جاء عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت فقال (ما منعك أن تأتي). فقلت كنت أصلي فقال (ألم يقل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾. ثم قال (ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد). فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج من المسجد فذكرته

أنظر طبقات الحفاظ ص٣١٠– ٣١١ وميزان الإعتدال لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج٦/ ص٩٠ – تحقيق على البجاوي وابنته والكشف الحثيث لإبراهيم بن محمد الطرابلسى ج١/ ص٢٢١ – عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية – بيروت – ط ١– ١٤٠٧هـ – تحقيق صبحى السامرائى.

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٥

(٢) تفسير فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى ج٣– ص ١٦٩ – تحقيق على محمد عمر – دار الفكر – بيروت – ط ١–١٣٩٦هـ

فقال﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) [١].
وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أبي بن كعب فقال يا أبي وهويصلي فالتفت أبي فلم يجبه وصلى أبي فخفف ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليك السلام ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك فقال يا رسول الله إني كنت في الصلاة قال فلم تجد فيما أوحى الله إلي أن استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم قال بلى ولا أعود إن شاء الله [٢]. وهذا يدل على وجوب الإستجابة لله ورسوله حتى داخل الصلاة التى يناجى المؤمن فيها ربه ومولاه وهذا يدل على أن طاعة الله ورسوله قرينان لا يفترقان.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا اللّه ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية اللّه تعالى ولزوم طاعته وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة للّه وللرسول فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ وهذا خبرٌ من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذوقلب أن يُدرك به شيئًا من إيمان أوكفر، أوأن يَعِي به شيئًا، أوأن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن "الحول بين

(١) رواه البخارى فى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الجعفي البخارى ج٤– ص ١٧٣٨– رقم ٤٤٢٦– باب { ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم }– دار طوق النجاة – الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

(٢) رواه الترمذى الجامع الصحيح (سنن الترمذي) لمحمد بن عيسى الترمذي ج٥– ص ١٥٥– رقم ٢٨٧٥– دار إحياء التراث العربي – بيروت– تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب وصححه الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب ج٢– ص ٨٥– رقم ١٤٥٣

الشيء والشيء"، إنما هوالحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أويفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبَه إدراكَه سبيلٌ.

وإذا كان ذلك معناه، دخل في ذلك قول من قال: "يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان"، وقول من قال: "يحول بينه وبين عقله"، وقول من قال: "يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه"، لأن الله عز وجل إذا حال بين عبد وقلبه، لم يفهم العبد بقلبه الذي قد حيل بينه وبينه ما مُنِع إدراكه به [١].

ويرى الباحث أن هذه الحيلولة عامة فتشمل الإيمان والكفر وغيرها من الأمور فما من أمر إلا ويقع بإذن الله جل وعلا فإذا ما حال الله عز وجل بين هذا الأمر وبين قلب صاحبه لم يقع كما إذا أراد عدم هدايته حال بينها وبين قلبه فلم يهتد وهكذا فى سائر الأمور.

فإياكم أن تردوا أمر اللّه أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم، فإن اللّه يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء ويصرفها أنى شاء[٢].عن مجاهد[٣] قال: إذا حال بينك وبين قلبك، كيف تعمل[٤]. عن أنس[٥]

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٦٩

(٢) تفسير السعدى ج١– ص ٣١٨

(٣) مجاهد بن جبر أبوالحجاج المكي الأسود مولى السائب بن أبى السائب الإمام شيخ القراء والمفسرين روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه قال الذهبي ولمجاهد أقوال وغرائب في العلم والتفسير تستنكر ولد سنة ٢١هـ توفى سنة ١٠٢هـ وهوساجد. أنظر سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد عثمان الذهبى ج٤/ ص ٤٤٩–٤٥٧ والتاريخ الصغير للبخارى ج١/ ص٢٤٣– تحقيق محمد إبراهيم زايد – دار الوعى – مكتبة دار التراث – حلب القاهرة – ١٣٩٧هـ – ط١.

(٤) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٧١

(٥) أنس بن مالك أبوحمزة الأنصاري الخزرجى خادم النبي صلى الله عليه وسلم جاءت به أمه إلي النبي صلى الله عليه وسلم لما مات أنس قال مورق ذهب اليوم نصف العلم قيل كيف ذلك قال كان الرجل من أهل الأهواء اذا خالفنا فى الحديث قلنا تعال إلى من سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم.

قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت يا رسول الله آمنا وبك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبهما كما يشاء(١). وفى رواية (يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ)(٢).

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ واعلموا، أيها المؤمنون، أيضًا، مع العلم بأن الله يحول بين المرء وقلبه: أنّ الله الذي يقدر على قلوبكم، وهوأملك بها منكم، إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفّيكم جزاء أعمالكم، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم هوورسوله أن تضيعوه، وأن لا تستجيبوا لرسوله إذا دعاكم لما يحييكم، فيوجب ذلك سَخَطَه، وتستحقوا به أليم عذابه حين تحشرون إليه(٣).

أنظر تهذيب التهذيب لابن حجر ج١/ ص٣٢٩-٣٣٠ – دار الفكر – بيروت – ط١- ١٤٠٤هـ والتاريخ الكبير للبخارى ج٢/ ص٢٧

(١) رواه الترمذى ج٤- ص ٤٤٨- رقم ٢١٤٠- باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن وأبى يعلى فى المسند لأحمد بن علي بن المثنى أبويعلى الموصلي ج٦- ص ٣٥٩- ٣٦٨٧ – تحقيق: حسين سليم أسد- دار المأمون للتراث – دمشق- ط الأولى، ١٤٠٤ – ١٩٨٤ ورواه أحمد فى المسند مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ج٣- ص ١١٢- رقم ١٢١٢٨- مؤسسة قرطبة – القاهرة وابن أبى شيبة فى المسند ج ٦- ص ١٦٨- رقم ٣٠٤٠٥ والتبريزى فى مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي ج١- ص ٢٢- رقم ١٠٢- المكتب الإسلامي – بيروت- ط الثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥- تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني وقال الألبانى صحيح أنظر صحيح الترمذى ج٣- ص١٧١- رقم ٢٧٩٢(ثلاثتهم بلفظ يقلبها)

(٢) رواه الترمذى ج٥- ص ٥٣٨ – رقم ٣٥٢٢- باب وقال حسن وأبويعلى فى المسند ج١٢- ص ٤١٩- رقم ٦٩٨٦ وابن أبى شيبة فى المصنف في الأحاديث والآثار لأبى بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة ج٦- ص ٢٥- رقم ٢٩١٢٧- تحقيق: كمال يوسف الحوت – مكتبة الرشد – الرياض- ط الأولى، ١٤٠٩ – وقال الألبانى صحيح أنظر السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني ج٥- ص ٩٠- رقم ٢٠٩١ – مكتبة المعارف – الرياض .

(٣) تفسير الطبرى ج١٣- ص ٤٦٩

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتۡنَةٗ ﴾ اختبارًا من الله يختبركم وبلاء يبتليكم"لا تصيبن"، هذه الفتنة التي حذرتكموها "الذين ظلموا"، وهم الذين فعلوا ما ليس لهم فعله، إما إجْرام أصابوها، وذنوب بينهم وبين الله ركبوها، يحذرهم جل ثناؤه أن يركبوا له معصية، أويأتوا مأثمًا يستحقون بذلك منه عقوبة [١].

وقوله تعالى: ﴿فِتۡنَةٗ ﴾ أي: اختبارًا ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع.

عن مُطَرِّف قال: قلنا للزبير[٢]: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير، رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله عنهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ ﴾لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت [٣] وعن ابن عباس قال: أمر الله المؤمنين أن لا يقرُّوا المنكر بين أظهرهم، فيعمَّهم الله بالعذاب[٤]. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ فإنه تحذير من الله، ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها بقوله:﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ ﴾ [٥].

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٧٣

(٢) الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى أبوعبد الله حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته وأحد العشرة شهد بدراً وما بعدها هاجر الهجرتين وهوأول من سل سيفاً فى سبيل الله جمع له النبى صلى الله عليه وسلم أبويه يوم أحد إستشهد يوم الجمل سنة ٣٦هـ.

أنظر تهذيب الكمال ليوسف بن الزكي عبدالرحمن المزي ج٩/ ص٣١٩– ٣٣٠ – مؤسسة الرسالة – بيروت– ط الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠– تحقيق: د. بشار عواد معروف وتهذيب التهذيب ج٣/ ص٢٧٣

(٣) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٣٧

(٤) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٧٤

(٥) المرجع السابق ج١٣– ص ٤٧٦

قال القرطبى [١]: وهذه التأويلات هي التي تعضدها الأحاديث الصحيحة،[٢] ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش[٣] أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث).[٤] وفي صحيح الترمذي:.(إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[٥].

---

(١)محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري القرطبى مفسر كان من عباد الله الصالحين والعلماء المعروفين الورعين الزاهدين أوقاته معمورة ما بين عبادة وتوجه وتصنيف له الجامع في أحكام القران.
أنظر الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣١٧- ٣١٨ - دار الكتب العلمية – بيروت – ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ج ٣ / ص٥٢- مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١- ١٤١٤.

(٢) تفسير القرطبى ج٧- ص ٣٩١

(٣) زينب بنت جحش بنت رباب أم المؤمنين تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث وقيل خمس وكانت قبله عند زيد بن حارثة كانت تفتخر على نساء النبى صلى الله عليه وسلم وتقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله عز وجل من فوق سبع سموات توفيت سنة ٢٠هـ.
أنظرتهذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني ج١٢ص٤٤٩- دار الفكر – بيروت – ط١- ١٤٠٤هـ وصفة الصفوة لأبى نعيم الأصبهاني ج٢/ ص٤٦-٤٩ - دار المعرفة – بيروت – ط٢ – ١٣٩٩ هـ – تحقيق محمود فاخوري ود. محمد دواس قلعجي.

(٤) رواه البخارى فى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الجعفي البخارى ج٣- = ص ١٢٢١- رقم ٣١٦٨- باب باب قصة يأجوج ومأجوج – دار طوق النجاة – الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ. ومسلم فى الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ج٤- ص ٢٢٠٧- رقم ٢٨٨٠- باب اقتران الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج – دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة بيروت.

(٥) رواه الترمذى فى الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبوعيسى الترمذي السلمي ج٤- ص ٤٦٧ – رقم ٢١٦٨- باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر وقال حسن صحيح – دار إحياء التراث العربي – بيروت- تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون. والبيهقى فى السنن الكبرى لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي ج١٠- ص ٩١- رقم ١٩٩٧٦- باب ما يستدل به على أن القضاء وسائر أعمال الولاة مما يكون أمرا بمعروف أونهيا عن منكر من فروض الكفايات – تحقيق: محمد عبد القادر عطا- مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤ والحميدى فى مسند الحميدي لعبدالله بن الزبير

وفي صحيح البخاري عن النعمان بن بشير[١] رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لوأنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[٢].

ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة. وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكل.

وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها.

وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم، كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم. وبهذا قال السلف رضي الله عنهم.

روى ابن وهب عن مالك أنه قال: تهجر الأرض التي يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها.

أبوبكر الحميدي ج١- ص٣- رقم ٣- دار الكتب العلمية، مكتبة المتنبي – بيروت، القاهرة – تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي (كلاهما بدون لفظة منه) وقال الألبانى صحيح أنظر صحيح الترغيب والترهيب ج٢- ص ٢٨٦- رقم ٢٣١٧

(١) النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة، الامير العالم، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن صاحبه، أبوعبد الله الانصاري الخزرجي ولد سنة اثنتين وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم، وعد من الصحابة الصبيان باتفاق كان كريماً جواداً شاعراً.أنظر سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد عثمان الذهبى ج٣- ص ٤١١ – تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى – مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٣هـ – ط ٩. والإستيعاب فى معرفة الأصحاب ليوسف بن عبد البر ج١- ص ٤٧٢- دار الجيل – بيروت – ط١- ١٤١٢هـ – تحقيق على محمد البجاوى.

(٢) رواه البخارى ج٢- ص ٨٨٢- رقم ٢٣٦١- باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه

واحتج بصنيع أبي الدرداء في خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا، فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من وزنها.خرجه الصحيح[١] .

وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا أنزل الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم "[٢].

فهذا يدل على أن الهلاك العام منه ما يكون طهرة للمؤمنين ومنه ما يكون نقمة للفاسقين.

عن عبدالله بن الزبير أن عائشة قالت: عبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه فقلنا يا رسول الله صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله فقال العجب إن ناسا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم فقلنا يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس قال نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكا واحدا ويصدرون مصادر شتى يبعثهم الله على نياتهم [٣]

قال القرطبى: وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. وأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عليه فكلهم عاص. هذا بفعله وهذا برضاه.

وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة قاله ابن العربي[٤].

﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾[٥]

---

(١) تفسير القرطبى ج٧– ص ٣٩٢

(٢) رواه البخارى ج ٦– ص ٢٦٠٢– رقم ٦٦٩١– باب إذا أنزل الله بقوم عذابا

(٣) رواه مسلم ج ٤– ص ٢٢١٠– رقم ٢٨٨٤– باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت

(٤) تفسير القرطبى ج٧– ص ٣٩٣

(٥) سورة الأنفال: ٢٦

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثَّرهم، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطرين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، من مشرك ومجوسي ورومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقَيَّض لهم أهلها، آووا ونصروا يوم بدر وغيره وآسَوا بأموالهم، وبذلوا مُهَجهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادة[١]: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذُلا وأشقاه عَيْشًا، وأجوعه بطونًا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا مكعومين على رأس حجر، بين الأسدين فارس والروم، ولا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًّا، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا لله نعمه، فإن ربكم مُنْعِم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله تعالى[٢]. والمؤمن تراه دائما شاكرا لربه لأنه يعلم أن النعم بيد الله عز وجل فمن شكر ربه زاده ومن كفر بنعمة مولاه سلبها إياها.

---

(١) قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى أبوالخطاب البصري حافظ العصر قدوة المفسرين والمحدثين ولد وهوأعمى سنة ٦١هـ وعنى بالعلم فصار من حفاظ أهل زمانه وعلمائهم بالقرآن قال الإمام أحمد كان قتادة أحفظ أهل البصرة.

أنظر مشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي ج١/ ص٩٦ – دار الكتب العلمية – بيروت، – ١٩٥٩– تحقيق: م. فلايشهمر. وتهذيب التهذيب ج٨/ ص٣١٥–٣١٨– وسير أعلام النبلاء للذهبي ج٥/ ص٢٦٩–٢٨٤

(٢) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٤٠

المبحث الثالث

النهى عن خيانة الله ورسوله والمؤمنين

وهذا هوالنداء الثالث وفيه ينهى الله عز وجل المؤمنين عن جميع أنواع الخيانات قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهويجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها[١] نهاهم الله عن أن يخونوه بترك شيء مما افترضه عليهم، أويخونوا رسوله بترك شيء مما أمنهم عليه، أوبترك شيء مما سنه لهم، أويخونوا شيئاً من الأمانات التي اؤتمنوا عليها، وسميت أمانات لأنه يؤمن معها من منع الحق، مأخوذة من الأمن.

وجملة ﴿ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال، أي وأنتم تعلمون أن ذلك الفعل خيانة، فتفعلون الخيانة عن عمد، أووأنتم من أهل العلم لا من أهل الجهل. ثم قال: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ لأنهم سبب الوقوع في كثير من الذنوب، فصاروا من هذه الحيثية محنة يختبر الله بها عباده، وإن كانوا من حيثية أخرى زينة الحياة الدنيا[٢].

ولما كان العبد ممتحنا بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر اللّه تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتلي اللّه بهما عباده، وأنها عارية ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها قلت وقد دلت على ذلك آيات منها قوله تعالى: ﴿ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [٣]

---

(١) تفسير المحرر الوجيز لغالب بن عبد الرحمن بن عطية الأندلسى ج ٣- ص ١٦٩- تحقيق: عبد السلام عبد الشافى محمد – دارالكتب العلمية . بيروت- ط: ١٤٢٢ هـ.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج٣- ص ١٧٢

(٣) سورة التغابن: ١٥

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ (٢). ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ فإن كان لكم عقل ورَأْيٌ، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم(٣).

قال قتادة: اعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله عز وجل ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها(٤).

قال عبد الله بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر(٥).حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قُرَيْظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك – وأشار بيده إلى حلقه – أي: إنه الذبح، ثم فطن أبولبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أويتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث (٦).كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، حتى أنزل الله

---

(١) سورة المنافقون: ٩

(٢) سورة التغابن: ١٤

(٣) تفسير السعدى ج١– ص ٣١٩

(٤) تفسير معالم التنزيل للحسين بن مسعود البغوي ج٣– ص ٣٤٨ – حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع – ط الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

(٥) أبولبابة بن عبد المنذر الأنصاري اسمه بشير بن عبد المنذر وقيل رفاعة كان نقيباً شهد العقبة وشهد بدراً. أنظر الإستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر ج٢– ص ٥٢ والإصابة لابن حجر ج٣– ص ٣٩٢ والثقات لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي ج٣– ص ٣٢– دار الفكر– الطبعة الأولى، ١٣٩٥ – ١٩٧٥– تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

(٦) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٤٠

توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال يجزيك الثلث أن تصدق به"(١). وفي الصحيحين قصة "حاطب بن أبي بَلْتَعَة" (٢) أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: " دعه، فإنه قد شهد بدرا، ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: "اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" (٣). قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية (٤). ويرى الباحث أن هذا هوالصحيح وذلك لعموم الآية ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

---

(١) أنظر السيرة النبوية لابن هشام ج٤– ص ١٩٧– تحقيق طه عبد الرءوف سعد– دار الجيل– ١٤١١– بيروت وتفسير ابن كثير ج٤– ص ٤٢

(٢) حاطب بن أبى بلتعة عمروبن عمير بن سلمة اللخمى المكى من مشاهير المهاجرين شهد بدرا والمشاهد وكان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس صاحب مصر وكان تاجرا فى الطعام وهومن الرماة الموصفين مات سنة ٣٠هـ.

أنظر سير أعلام النبلاء ج٢/ ص٤٣–٤٥ والطبقات الكبرى لابن سعد ج٣/ ص ١١٤– تحقيق: إحسان عباس– دار صادر – بيروت– ط: ١ – ١٩٦٨ م.

(٣) أنظر صحيح البخارى ج٣– ص ١٠٩٥– رقم ٢٨٤٥– باب الجاسوس

(٤) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٤١

المبحث الرابع: الأمر من الله عز وجل بالتقوى

فى هذا النداء الرابع يأمر الله عز وجل بتقواه إذ هى ملاك الأمر كله لذا جاء بها الأمر كثيراً فى القرآن الكريم ورتب الله عز وجل عليها من الفضل الشئ الكثير قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (١).

امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب اللّه على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئا كثيرا، فذكر هنا أن من اتقى اللّه حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهوالعلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب،وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وآثر رضاه على هوى نفسه. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (٢)

قال ابن عباس والسُّدِّيّ ومُجاهِد وعِكْرِمة والضحاك وقَتَادة ومُقَاتِل بن حَيَّان: ﴿فُرۡقَانٗا﴾ مخرجا. زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فُرۡقَانٗا﴾ أي: فصلا بين الحق والباطل.

وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره

(١) سورة الأنفال: ٢٩

(٢) تفسير السعدى ج١– ص ٣١٩

ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه – وهومحوها – وغفرها: سترها عن الناس – سببًا لنيل ثواب الله الجزيل، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (١)(٢). ويرى الباحث أن هذه الآية عامة وكلمة ﴿فُرْقَانًا﴾ لا تختص بأمر دون أمر وما أطلقه الله عز وجل لا يحل لأحد أن يقيده بشئ معين فتبقى الآية على إطلاقها وأما ما جاء عن بعض الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فهوتفسير بالمثال ولا يقصدون التقييد بكلمتهم والله أعلم.

(١) سورة الحديد: ٢٨

(٢) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٤٢

المبحث الخامس

النهى من الله عز وجل بالتولى يوم الزحف والأمر بالثبات

المطلب الأول: النهى عن التولى عند لقاء العدو

هذا النهى من الله عز وجل بالتولى يوم الزحف ترتيبه متقدم على حسب ترتيب السورة ولكنى أخرته لأجمع بينه وبين الأمر بالثبات عند التحام الصفوف قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[١].

قال الأَزهري [٢] وأَصل الزحْفِ للصبي وهوأَن يَزْحَفَ على اسْته قبل أَن يقوم وإِذا فعل ذلك على بطنه قيل قد حَبا وشُبِّه بزَحْفِ الصبيان مَشْيُ الفئَتَيْن تَلْتَقِيان للقتال فيمشي كلّ فيه مشياً رُوَيْداً إِلى الفِئةِ الأُخْرى قبل التداني للضِّراب وهي مَزاحِفُ أَهلِ الحرب وتَزَاحَفُوا في الْقِتَالِ: إِذا تَدَانَوْا [٣].

والمعنى هنا: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفروا عنهم ولا تعطوهم أدباركم. حرم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار.

قال ابن عطية: والأدبار جمع دبر. والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة، لأنها بشعة على الفار، ذامة له[٤].

---

(١) سورة الأنفال: ١٥

(٢) محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة الهروى الأزهرى أبومنصور اللغوى صاحب تهذيب اللغة ولد سنة ٢٨٢هـ. كان إماماً فى اللغة بصيراً بالفقه عارفا بالمذهب عالى الإسناد ثخين الورع كثير العبادة والمراقبه متحرياً فى دينه له التهذيب والتقريب فى التفسير وغيرهما توفى سنة ٣٧٠هـ. أنظر طبقات الشافعية الكبرى لعلى بن عبد الوهاب بن على السبكى ج٣/ ص٦٣-٦٨ – هجر للطباعة والنشروالتوزيع والإعلان – الجيزة – ط٢- ١٩٩٢م – تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلوود. محمود محمد الطناحى.

(٣) أنظر لسان العرب لابن منظور ج٩- ص ١٢٩ وتاج العروس للزبيدى ج ١- ص ٥٨٨٤

(٤) تفسير القرطبى ج٧- ص ٣٨٠

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ يقول: فلا تولوهم ظهوركم فتنهزموا عنهم ولكن اثبتوا لهم، فإن الله معكم عليهم ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ يقول: ومن يولهم منكم ظهره [١].﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أي: يفر بين يدي قرنه مكيدة، ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله، فلا بأس عليه في ذلك. نص عليه سعيد بن جبير، والسدي. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدوفيصيبها[٢]. ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ والفئة تطلق على مؤخرة الجيش لأنها يفيء إليها مَن يحتاج إلى إصلاح أمره أومَن عَرض له ما يَمنعه من القتال من مرض أوجراحة أويستنجد بهم، فهوتولَ لمقصد القتال[٣].

واختلف الناس هل الفرار يوم الزحف مخصوص بيوم بدر أم عام في الزحوف كلها إلى يوم القيامة ؟

وقول الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة [٤] – ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ – إلى يوم الزحف الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ﴾ وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذي بينه الله تعالى في آية أخرى، وليس في الآية نسخ. فلا يحل فرار مائة إلا مما زاد على المائتين، فمهما كان في مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن.

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٣٥

(٢) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٢٧

(٣) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ج٦– ص ١٠٠– دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م

(٤) تفسير القرطبى ج٧– ص ٣٨١

والدليل عليه أن الآية نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأكثر العلماء. لأن الفئة هناك الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. وهذا على قول الجمهور أن الفرار من الزحف كبيرة(١).

وقد وقف جيش مؤتة وهم ثلاثة آلاف في مقابلة مائتي ألف، منهم مائة ألف من الروم، ومائة ألف من المستعربة من لخم وجذام (٢).

وذهب الفريق الآخر إلى جواز الفرار إن كان إلى المسلمين فى أى مكان:

عن أبي سعيد الخدري(٣) قال: إنما كان ذلك يوم بدر، لم يكن للمسلمين فئة إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما بعد ذلك، فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض(٤).

ويدخل في معنى التحيز إلى الفئة الرجوع إلى مقر أمير الجيش للاستنجاد بفئة أخرى، وكذلك القفول إلى مقر أمير المِصر الذي وجه الجيش للاستمداد بجيش آخر إذا رأى أميرُ الجيش ذلك من المصلحة كما فعل المسلمون في فتح إفريقية وغيره في زمن الخلفاء، ولما انهزم أبوعبيد بن مسعود الثقفي يوم الجسر بالقادسية، وقتل هوومن معه من المسلمين، قال عمر بن الخطاب: هلاّ تَحيّز إليّ فأنا فِئتُهْ (٥) (١).

---

(١) المرجع السابق ج٧– ص ٣٨٣

(٢) أنظر السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ج٥– ص ٢٤– تحقيق طه عبد الرءوف سعد– دار الجيل– ١٤١١هـ – بيروت. وجوامع السيرة علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري ج١– ص ٢٢١– المحقق: إحسان عباس– دار المعارف – مصر– ط: ١، ١٩٠٠ م.

(٣) سعد بن مالك بن سنان الخزرجى أبوسعيد الخدرى كان من نجباء الأنصار وعلمائهم وفضلائهم وممَّن حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنناً كثيرةً وروى عنه علماً جماً من أصحاب الشجرة فقيه نبيل أول مشاهده الخندق غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إثنتى عشرة غزوة مات سنة ٦٤هـ بالمدينة.
أنظر الإستيعاب لابن عبد البر ج٢/ ص ٦٠٢ والكاشف للذهبى ج١/ ص٤٣٠ – دار القبلة– جدة – ط١ –١٤١٣هـ – تحقيق محمد عوامة وتاريخ بغداد لأحمد البغدادي ج١/ ص١٨١– دار الكتب العلمية – بيروت.

(٤) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٣٧

(٥) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٢٧

وقال ابن كثير: أي فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين، يعاونهم ويعاونوه فيجوز له ذلك، حتى ولوكان في سرية ففر إلى أميره أوإلى الإمام الأعظم، دخل في هذه الرخصة[٢].

عن عبد الله بن عمر[٣] رضي الله عنهما، قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاص الناس حيصة – وكنت فيمن حاص – فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لودخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لوعرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: "من القوم؟" فقلنا: نحن الفرارون. فقال: "لا بل أنتم العَكَّارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين" قال: فأتيناه حتى قَبَّلنا يده[٤].

ورواه ابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن أبي زياد به. وزاد في آخره: وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾[٥]. قال أهل العلم: معنى

(١) أنظر الكامل في التاريخ لعلي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ج٢– ص ٢٨٧– تحقيق: عبد الله القاضي – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٢٧

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب أبوعبد الرحمن القرشي كان من صالحي الصحابة وقرائهم وزهادهم وهوأحد المكثرين وأحد العبادلة لم يشتغل في هذه الدنيا بالصفراء ولا بالتمتع بالبيضاء ولا ضم درهما إلي درهم وكان من أكثرهم تتبعاً لآثار النبي صلى الله عليه وسلم وأكثرهم إستعمالاً لها.ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي وتوفى سنة ٧٣هـ.

أنظر الإصابة لابن حجر ج٤/ ص١٨١–١٨٨– دار الجيل – بيروت– ١٤١٢ هـ – ط ١ تحقيق على محمد البجاوي ومشاهير علماء الأمصارج١/ ص١٧.

(٤) رواه أحمد فى المسند ج٢– ص ٧٠ – رقم ٥٣٨٤ وقال شعيب الأرنؤوط إسناده ضعيف.

(٥) تفسير ابن أبى حاتم ج٥– ص ١٦٧١– تحقيق: أسعد محمد الطيب – دار النشر: المكتبة العصرية – صيدا.

قوله: "العَكَّارون" أي: العطافون. وكذلك قال عمر بن الخطاب[١] رضي الله عنه، في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس، لكثرة الجيش من ناحية المجوس، فقال عمر: لوانحاز إليّ كنت له فئة. هكذا رواه محمد بن سيرين، عن عمر وفي رواية أبي عثمان النهدي، عن عمر قال: لما قتل أبوعبيد قال عمر: يا أيها الناس، أنا فئتكم[٢].

وقال مجاهد: قال عمر: أنا فئة كل مسلم. وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن عمر: أيها الناس، لا تغرنكم هذه الآية، فإنما كانت يوم بدر، وأنا فئة لكل مسلم.

عن نافع: أنه سأل ابن عمر قلت: إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا، ولا ندري من الفئة: إمامنا أوعسكرنا؟ فقال: إن الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت إن الله يقول: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ فقال: إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر، لا قبلها ولا بعدها [٣]. وعلى هذه الأحاديث لا يكون الفرار كبيرة، لأن الفئة هنا المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا.

ويرى الباحث أن الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر وذلك لأن الأثر الذى استدل به من يرى جواز الفرار ضعيف كما سبق وكذلك ثبت أن الفرار كبيرة من الكبائر بل عدها النبى صلى الله عليه وسلم من أكبرها ومن السبع الموبقات كما فى حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجتنبوا السبع الموبقات". قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس

---

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل أبوحص العدوى القرشى رضى الله عنه كانت إليه السفارة فى الجاهلية وكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام قال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر شهد بدراً والمشاهد كلها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهوعنه راضٍ وشهد له بالجنة وهومشهود جم المناقب محاسنه أكثر من أن تستقصى توفى سنة ٢٣هـ.أنظر التاريخ الكبير للبخارى ج٦/ ص١٣٨وتهذيب التهذيب ج٧/ ص٣٨٥-٣٨٧

(٢) تفسير ابن كثير ج٤- ص ٢٧

(٣) تفسير ابن كثير ج٤- ص ٢٨

التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّوَلِّي يوم الزحف، وقَذْفِ المحصنات الغافلات المؤمنات"(١)

وعن ابن عباس قال: أكبر الكبائر الشرك بالله، والفرار من الزحف، لأن الله عز وجل يقول﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾... ﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٢).

وهذا ما رجحه الطبرى فقال: وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي قولُ من قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرّم على المؤمنين إذا لقوا العدوأن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال، أولتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن من ولاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه.

وإنما قلنا هي محكمة غير منسوخة لأنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ، وله في غير النسخ وجه إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر يقطع العذر، أوحجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عز وجل:﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ (٣).

---

(١) رواه البخارى ج٣– ص ١٠١٧– رقم ٢٦١٥– باب قول الله تعالى { إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا } ومسلم ج١– ص ٩٢– رقم ٨٩– باب بيان الكبائر وأكبرها

(٢) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٤٠

(٣) المرجع السابق ج١٣– ص ٤٤٠

وعن أبي المثنى العبدي سمعت السدوسي – يعني ابن الخصاصية، وهوبشير بن معبد[١] – قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لأبايعه، فاشترط علي: "شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حَجَّة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله". فقلت: يا رسول الله، أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدُّبُر فقد باء بغضب من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله ما لي إلا غُنَيْمَةٌ وعشر ذَوْدٍ هُنَّ رَسَل أهلي وحَمُولتهم. فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده، ثم حرك يده، ثم قال: "فلا جهاد ولا صدقة، فيم تدخل الجنة إذا؟ " فقلت: يا رسول الله، أنا أبايعك. فبايعته عليهنَّ كلهنَّ[٢] .

قالوا: وإنما كان ذلك القول[٣] من النبي صلى الله عليه وسلم وعمر على جهة الحيطة على المؤمنين، إذ كانوا في ذلك الزمان يثبتون لأضعافهم مرارا. والله أعلم.

وفي قوله: " والتولي يوم الزحف " ما يكفي[٤].

وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا. وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف عن الكثرة [٥]. قال القرطبى: ووقع في تاريخ فتح الأندلس، أن طارقا مولى موسى بن نصير سار في ألف وسبعمائة رجل إلى الأندلس، وذلك في رجب سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، فالتقى وملك الأندلس

---

(١) بشير بن الخصاصية السدوسي وهويشير بن معبد السدوسي كان اسمه في الجاهلية زحماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أنت بشير " أنظر الإستيعاب لابن عبد البر ج١– ص ٥٣ وتهذيب الكمال ج٤– ص ١٧٥.

(٢) رواه أحمد فى المسند ج٥– ص ٢٢٤– رقم ٢٢٠٠٢. قال شعيب الأرنؤوط رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي المثنى العبدي وذكره ابن حبان والعجلي في الثقات

(٣) تفسير القرطبى ج٧– ص ٣٨٣

(٤) المرجع السابق ج٧– ص ٣٨٤

(٥) المرجع السابق ج٧– ص ٣٨٢

لذريق وكان في سبعين ألف عنان، فزحف إليه طارق وصبر له فهزم الله الطاغية لذريق، وكان الفتح.

قال ابن وهب: سمعت مالكا [١] يسأل عن القوم يلقون العدوأويكونون في محرس يحرسون فيأتيهم العدووهم يسير، أيقاتلون أوينصرفون فيؤذنون أصحابهم ؟ قال: إن كانوا يقوون على قتالهم قاتلوهم، وإلا انصرفوا إلى أصحابهم فأذنوهم[٢]. والفرار كبيرة موبقة بظاهر القرآن وإجماع الأكثر من الأئمة [٣].

و﴿ بَآءَ ﴾رجع. والمعنى أن الله غضب عليه في رجوعه ذلك فهوقد رجع ملابساً لغضب الله تعالى عليه. وهذا غضب الله عليه في الدنيا المستحق الذم وغيره مما عسى أن يحرمه عناية الله تعالى في الدنيا، ثم يترتب عليه المصير إلى عذاب جهنم، وهذا يدل على أن توليه الظهر إلى المشركين كبيرة عظيمة [٤].﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ﴾يقول: ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير[٥]. وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم وهووقت اللقاء، لأن الفرار حينئذٍ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلوانكشفوا بالفرار

(١) مالك بن أنس بن أبى عامر الأصبحى أبوعبد الله الفقيه أحد أعلام الإسلام وإمام دار الهجرة من سادة التابعين وجلة الفقهاء والصالحين ولد سنة ٩٣هـ وهوأول من انتقى الرجال من الفقهاء بالمدينة وأعرض عمن ليس بثقة فى الحديث قال الشافعى إذا جاء الأثر فمالك النجم توفى سنة ١٧٩هـ.

أنظر تهذيب التهذيب ج١/ ص٥– ٧ والثقات لابن حبان ج٧/ ص٤٥٩–٤٦٠ ومشاهير علماء الأمصار ج١/ ص١٤٠

(٢) تفسير القرطبى ج٧– ص ٣٨١

(٣) المرجع السابق ج٧– ص ٣٨٠

(٤) تفسير التحرير والتنوير ج٦– ص ١٠٠

(٥) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٤٤١

لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هوحكم الصبر عند اللقاء، وبهذا يكون التقييد بحال الزحف للإحتراز عن اللقاء في غير تلك الحالة. وأما آية ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾[١] فقد بينت حكم العَدد الذين عليهم طلب جهاد المشركين بنسبة عددهم إلى عدد المشركين، ولعل هذا مراد ابن العربي من قوله: { لأنه ظاهر الكتاب والحديث } فيما نقله ابن الفرس [٢] .

وأجيب عن قول الأوّلين بأن الإشارة في ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ إلى يوم بدر بأن الإشارة إلى يوم الزحف كما يفيده السياق، ولا منافاة بين هذه الآية وآية الضعف. بل هذه الآية مقيدة بها، فيكون الفرار من الزحف محرماً بشرط ما بينه الله في آية الضعف، ولا وجه لما ذكروه من أنه لم يكن في الأرض يوم بدر مسلمون غير من حضرها، فقد كان في المدينة إذ ذاك خلق كثير لم يأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالخروج، لأنه صلى الله عليه وسلم ومن خرج معه لم يكونوا يرون في الابتداء أنه سيكون قتال [٣].

فالآية دالة على تحريم التولي عن مقابلة العدوحين الزحف. والذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهر الآية هوتحريم التولي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة، بحيث إن المسلمين إذا توجهوا إلى قتال المشركين أوإذا نزل المشركون لمقاتلتهم وعزموا على المقاتلة فإذا التقى الجيشان للقتال وجب على المسلمين الثبات والصبر للقتال، ولوكانوا أقل من جيش المشركين، فإمّا أن ينتصروا، وإمّا أن يستشهدوا، وعلى هذا فللمسلمين النظر قبل اللقاء هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أولاً، فإن وقت المجالدة يضيق عن التدبير، فعلى الجيش النظر في عَدده وعُدده ونسبة ذلك من جيش عدوهم، فإذا أزمعوا الزحف وجب عليهم

(١) سورة الأنفال: ٦٥

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج٦– ص ١٠٢

(٣) تفسير فتح القدير للشوكانى ج٣– ص ١٦٠

الثبات، وكذلك يكون شأنهم في مدة نزولهم بدار العدو، فإذا رأوا للعدونجدة أوازدياد قوة نظروا في أمرهم هل يثبتون لقتاله أوينصرفون بإذن أميرهم، فإمّا أن يأمرهم بالكف عن متابعة ذلك العدو، وإمّا أن يأمرهم بالاستنجاد والعودة إلى قتال العدوكما صنع المسلمون في غزوة إفريقية الأولى، وهذا هوالذي يشهد له قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾[١]. وما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قام في الناس فقال: (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدووسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) [٢]. ولعل حكمة ذلك أن يمضي المسلمون في نصر الدين، وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدووتركِ قتالهم، أن يغادر دار الحرب ويرجع إلى مقره، إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له من القوة ما يستطيع بها دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك لا يسمى تولية أدبار، بل هورأي ومصلحة [٣] .

المطلب الثانى: الأمر بالثبات عند لقاء العدو

وهنا أمر الله عز وجل المؤمنين بالثبات أمام عدوهم فقال تعالى:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤]

وهذا تعريفٌ من الله جل ثناؤه أهل الإيمان به، السيرةَ في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعالَ التي يُرْجَى لهم باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم. يا أيها الذين آمنوا"، صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله للحرب والقتال، فاثبتوا لقتالهم، ولا تنهزموا عنهم ولا تولوهم الأدبار هاربين، إلا متحرفًا لقتال

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥

(٢) رواه البخارى ج٣– ص ١٠٨٢– رقم ٢٨٠٤– باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج٦– ص ١٠١

(٤) سورة الأنفال: ٤٥

أومتحيزًا إلى فئة منكم [١]. وهذا تعليم الله عباده المؤمنين آداب اللقاء، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء عن عبد الله بن أبي أوفى: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيبا قال (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدووسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم) [٢]. ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ يقول: وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره [٣] .

عن ابن جُريج، عن عطاء قال: وجب الإنصات والذكر عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم.

وعن كعب الأحبار [٤] قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [٥] . قال القرطبى: والاظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان[٦].

---

(١) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٥٧٤

(٢) رواه البخارى ج٣– ص ١٠٨٢– رقم ٢٨٠٤– باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس

(٣) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٥٧٤

(٤) كعب بن ماتع الحميري أبوإسحاق المعروف بكعب الأحبار العلامة الحبر أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله رجلاً وأسلم في خلافة عمر وكان حسن الاسلام، متين الديانة، من نبلاء العلماء، وكان خبيرا بكتب اليهود، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة. أنظر الإصابة لابن حجر ج٣– ص ١٧ وسير أعلام النبلاء للذهبى ج٣– ص ٤٨٩

(٥) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٧١

(٦) تفسير القرطبى ج٨– ص ٢٣

وأمرهم بذكره تعالى كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدووالتلاحم بالرماح وبالسيوف وهي حالة يقع فيها الذهول عن كل شيء فأمروا بذكر الله إذ هوتعالى الذي يفزع إليه عند الشدائد ويستأنس بذكره ويستنصر بدعائه ومن كان كثير التعلق بالله ذكره في كل موطن حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء ويغيب فيها الحسّ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وحكى لي بعض الشجعان أنه حالة التحام القتال تأخذ الشجاع هزة وتعتريه مثل السكر لهول الملتقى فأمر المؤمنين بذكر الله في هذه الحالة العظيمة[١]. أمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك. فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضا فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم[٢]. قال الزمخشري: فيه إشعار بأنّ على العبد أن لا يفتر عن ذكر الله أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همّاً وأن يكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزّعة عن غيره، وذكر أن الثبات وذكر الله سببا الفلاح وهوالظفر بالعدوفي الدنيا والفوز في الآخرة بالثواب، والظاهر أن الذكر المأمور به هوباللسان فأمر بالثبات بالجنان وبالذكر باللسان والظاهر أن لا يعين ذكر[٣]. وفي الآية دليل على مشروعية الذكر في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي ترجف فيها القلوب، وتزيغ عندها البصائر، ثم

(١) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ج٦– ص ٨٣– تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض – دار الكتب العلمية – لبنان– بيروت – ط: الأولى – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٧٢

(٣) تفسير البحر المحيط ج٦– ص ٨٤

أمرهم بطاعة الله فيما يأمرهم به وطاعة رسوله فيما يرشدهم إليه، ونهاهم عن التنازع وهوالاختلاف في الرأي، فإن ذلك يتسبب عنه الفشل، وهوالجبن في الحرب(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ژ يقول: كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصرَ والظفر عليهم، عن قتادة قال: افترضَ الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضِّراب بالسيوف. وعن ابن إسحاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ يقاتلونكم في سبيل الله ﴿ فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ژ اذكروا الله الذي بذلتم له أنفسكم والوفاء بما أعطيتموه من بيعتكم﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: أطيعوا، أيها المؤمنون، ربَّكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوهما في شيء ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم ﴿فَتَفْشَلُواْ ﴾ الفشل، الضعف عن جهاد عدوه والانكسار لهم، فذلك "الفشل".(٣) فتضعفوا وتجبنوا، ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (٤) يعني: من البأس والكثرة.

وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل. ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ ﴾يقول: اصبروا مع نبيّ الله صلى الله عليه وسلم عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ يقول: اصبروا فإني معكم (٥) .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج٣– ص ١٩١

(٢) تفسير الطبرى ج١٣– ص ٥٧٤

(٣) المرجع السابق ج١٣– ص ٥٧٧

(٤) المرجع السابق ج١٣– ص ٥٧٥

(٥) المرجع السابق ج١٣– ص ٥٧٦

وقد كان للصحابة – رضي الله عنهم – في باب الشجاعة والائتمار بأمر الله، وامتثال ما أرشدهم إليه – ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة، مع قلة عَدَدهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبُوش وأصناف السودان والقبْط، وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى عَلَتْ كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين، وحشرنا في زمرتهم، إنه كريم وهاب[١] . وهكذا فقد قرن الله عز وجل بين الصبر فى الحرب وبين ذكره وما ذلك إلا لأن الأمر بيد الله من قبل ومن بعد فهوالذى ينصر وهوالذى يخذل ولذلك كان نبينا صلى الله عليه وسلم شديد التضرع والذكر عند لقاء العدوفمن كان مع الله ذاكرا له فى مثل هذه المواقف كان الله معه ومن كان الله معه لا يبالى.

(١) تفسير ابن كثير ج٤– ص ٧٢

الخاتمة :

الحمد لله الذى وفق وأعان وله الحمد فى البدء والختام وصلى الله وسلم على نبينا محمد القائد الهمام وعلى آله وصحبه إلى يوم البعث والمقام وبعد.

أهم النتائج:

١- السماع الحقيقى للقرآن هوسماع العمل والتدبر لا سماع الآذان فحسب، إذ جعل الله من سمع القرآن ولم يعمل به كمن لم يسمعه.

٢- حكم الله على كل من لم يعمل بأوامره وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم أنه لا خير فيه.

٣- شر الخلق والخليقة عند الله من صم أذنه عن سماع الحق وأخرس لسانه عن قوله وأغلق قلبه عن تدبره

٤- الحياة الحقيقية هى الحياة فى ظل طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والإستجابة لله ورسوله.

٥- واجب على كل مسلم ومسلمة إذا بلغه قول الله أورسوله صلى الله عليه وسلم أن يبادر إلى العمل به ويدع ما خالفه كائناً من كان.

٦- كل ما أمر به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فإن به سعادة المرء وحياته الحقيقية.

٧- إذا رد المرء قول الله أوقول رسوله صلى الله عليه وسلم فقد يحال بينه وبين قلبه فلا يستطيع العمل به مرة أخرى إذا أراده

٨- البلاء إذا وقع يعم الطائع والعاصى ثم يبعثون على نياتهم.

٩- إذا تركت الأمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد أخذت بأسباب الدمار والهلاك.

١٠- إذا سكت الآمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقد دخل فى جملة العاصيين ويلحقه من العذاب ما لحقهم.

١١- ترك العمل بما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم يعد خيانة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

١٢- من ثمرات التقوى أن يوفق الله سبحانه وتعالى العبد فيفرق بين الحق والباطل.

١٣- الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر والنهى عن التولى يوم الزحف عام وباق إلى يوم القيامة.

فهرس المصادر والمراجع

الرقم	المرجع
١	الإستيعاب ليوسف بن عبد البر – دار الجيل – بيروت – ط١– ١٤١٢هـ – تحقيق على محمد البجاوى
٢	الإيمان حقيقته، نواقضه، خوارمه عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عبد الحميد الأثرى
٣	البخارى فى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري – المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر– دار طوق النجاة – الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ
٤	تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزَّبيدي– تحقيق مجموعة من المحققين– دار الهداية.
٥	التاريخ الصغير للبخارى– تحقيق محمد إبراهيم زايد – دار الوعى – مكتبة دار التراث – حلب القاهرة – ١٣٩٧هـ – ط١.
٦	التاريخ الكبير لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري – دار الفكر– تحقيق: السيد هاشم الندوي
٧	تاريخ بغداد لأحمد البغدادي – دار الكتب العلمية – بيروت.
٨	تفسير ابن أبى حاتم – تحقيق: أسعد محمد الطيب – دار النشر: المكتبة العصرية – صيدا
٩	تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي – تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود – الشيخ علي محمد معوض– دار الكتب العلمية – لبنان– بيروت – ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م– ط: الأولى
١٠	تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور– دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧ م
١١	تفسير الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى – دار الشعب القاهرة – ط٢ – ١٣٧٢هـ – تحقيق أحمد عبد العليم البردونى
١٢	تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى – دار الفكر – بيروت – ط١ – ١٤٠١هـ – تحقيق أحمد يوسف الدقاق
١٣	تفسير المحرر الوجيز . لابن عطية الأندلسى– تحقيق: عبد السلام عبد الشافى محمد– دارالكتب العلمية . بيروت– ط: ١٤٢٢ هـ

١٤ تفسير جامع البيان عن تأويل آى القرآن لمحمد بن يزيد بن جرير الطبرى – دار الفكر – بيروت – ط ١ – ١٤٠٥هـ تحقيق د. مصطفى مسلم محمد

١٥ تفسير فتح القدير لمحمد بن على الشوكانى – دار الفكر – بيروت – ط ١–١٣٩٦هـ – تحقيق على محمد عمر

١٦ تقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني – دار الرشيد – سوريا– الطبعة الأولى، ١٤٠٦ – ١٩٨٦– تحقيق: محمد عوامة

١٧ تهذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر أبوالفضل العسقلاني – دار الفكر – بيروت– الطبعة الأولى – ١٤٠٤

١٨ تهذيب الكمال ليوسف بن الزكي عبدالرحمن أبوالحجاج المزي – مؤسسة الرسالة – بيروت– ط الأولى، ١٤٠٠ – ١٩٨٠تحقيق: د. بشار عواد معروف

١٩ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي – تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق – مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م

٢٠ الثقات لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي – دار الفكر– الطبعة الأولى، ١٣٩٥ – ١٩٧٥– تحقيق: السيد شرف الدين أحمد.

٢١ الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري – دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة . بيروت

٢٢ الجامع الصحيح سنن الترمذي لمحمد بن عيسى أبوعيسى الترمذي السلمي– دار إحياء التراث العربي – بيروت– تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون

٢٣ الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي – دار إحياء التراث العربي – بيروت– الطبعة الأولى، ١٢٧١ – ١٩٥٢

٢٤ جوامع السيرة علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري – المحقق: إحسان عباس– دار المعارف – مصر– ط: ١، ١٩٠٠ م.

٢٥ الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون – دار الكتب العلمية – بيروت

٢٦ السلسلة الصحيحة لمحمد ناصر الدين الألباني – مكتبة المعارف – الرياض

٢٧ السنن الكبرى لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي– تحقيق: محمد عبد القادر عطا– مكتبة دار الباز – مكة المكرمة، ١٤١٤ – ١٩٩٤

٢٨ سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – الطبعة التاسعة ١٤١٣

هـ ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة بيروت – – تحقيق شعيب الارنؤوط

٢٩ السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري– تحقيق طه عبد الرءوف سعد– دار الجيل– ١٤١١هـ – بيروت.

٣٠ شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي– المكتب الإسلامي – بيروت– ط الرابعة، ١٣٩١.

٣١ صحاح العربية لإسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار– دار العلم للملايين – بيروت– ط: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م

٣٢ صحيح الترغيب والترهيب لمحمد ناصر الدين الألباني– مكتبة المعارف – الرياض الطبعة: الخامسة

٣٣ صحيح الترمذى لمحمد ناصر الدين الألباني – مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت– الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م

٣٤ صفة الصفوة لعبد الرحمن بن علي بن محمد أبوالفرج ابن الجوزي – دار المعرفة – بيروت– الطبعة الثانية، ١٣٩٩ – ١٩٧٩– تحقيق: محمود فاخوري – د.محمد رواس قلعه جي

٣٥ طبقات الحفاظ لعبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤٠٣ هـ

٣٦ طبقات الشافعية الكبرى لعلى بن عبد الوهاب بن على السبكى – هجر للطباعة والنشروالتوزيع والإعلان – الجيزة – ط٢– ١٩٩٢م – تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلوود. محمود محمد الطناحى

٣٧ الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع أبوعبدالله البصري – تحقيق إحسان عباس– دار صادر – بيروت – ط: ١ – ١٩٦٨ م

٣٨ الكاشف للذهبى – دار القبلة– جدة – ط١ –١٤١٣هـ – تحقيق محمد عوامة

٣٩ الكامل في التاريخ لعلي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ج٢– ص ٢٨٧– تحقيق: عبد الله القاضي – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥هـ، الطبعة: ط٢.

٤٠ الكشف الحثيث لإبراهيم بن محمد الطرابلسى – عالم الكتب – مكتبة النهضة العربية – بيروت – ط ١– ١٤٠٧هـ – تحقيق صبحى السامرائى

٤١ لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور – دار صادر – بيروت

٤٢ مجموع الفتاوى لتقي الدين أبوالعباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني – تحقيق: أنور

الباز – عامر الجزار– دار الوفاء– الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

٤٣ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني – مؤسسة قرطبة – القاهرة

٤٤ مسند الحميدي لعبدالله بن الزبير أبوبكر الحميدي– دار الكتب العلمية، مكتبة المتنبي – بيروت، القاهرة – تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي

٤٥ المسند لأبي يعلى لأحمد بن علي بن المثنى أبويعلى الموصلي التميمي – دار المأمون للتراث – دمشق– الطبعة الأولى، ١٤٠٤ – ١٩٨٤– تحقيق: حسين سليم أسد.

٤٦ مشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان بن أحمد أبوحاتم التميمي البستي – دار الكتب العلمية – بيروت– ١٩٥٩– تحقيق: م. فلايشهمر

٤٧ مشكاة المصابيح لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي– المكتب الإسلامي – بيروت– الطبعة: الثالثة – ١٤٠٥ – ١٩٨٥– تحقيق محمد ناصر الدين الألباني

٤٨ المصنف في الأحاديث والآثار لأبى بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة – مكتبة الرشد – الرياض– ط الأولى، ١٤٠٩– تحقيق: كمال يوسف الحوت

٤٩ المصنف في الأحاديث والآثار لأبى بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة – تحقيق: كمال يوسف الحوت – مكتبة الرشد – الرياض– ط الأولى، ١٤٠٩

٥٠ معالم التنزيل لمحيي السنة، أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي حققه – خرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع – الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

٥١ معجم الفروق اللغوية لابي هلال العسكري ج١– ص ٥٣٤ – تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي – ط: الاولى– ١٤١٢

٥٢ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١– ١٤٤

٥٣ معرفة الثقات لأحمد بن عبد الله بن صالح أبوالحسن العجلي الكوفي – مكتبة الدار – المدينة المنورة– الطبعة الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٥– تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي

٥٤ مفردات القرآن للراغب الأصفهانى – دار القلم . دمشق.

٥٥ ميزان الإعتدال لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي– تحقيق على البجاوي وابنته